

الجرجاني والقصة الأصلية

عندما ندرس نصاً «على ضوء» هذا المنهج أو ذاك، فإننا نعتقد - أو نفترض - أن النص غامض، مبهم، يكتنفه ليل كثيف دامس، وإلا فما الحاجة إلى الضوء؟ لكي لا نضلّ أو نحيد عن الجادة، فإننا نستعين بمصباح منهجي. كلمة «منهج» تتضمن العديد من المعاني اللغوية والثقافية: المسلك الواضح، الطريق المستقيم، السبيل البين المستوي... هكذا يتحول الدارس إلى مخلوق عجيب، إلى مشاء يقتحم الليل وفي يده سراج يستنير به.

هذا التصور، الذي لا نفطن إليه في الغالب، يترأى أيضاً عندما يتعلق الأمر بنصوص «واضحة»، نصوص يوجد فيها مصباح داخلي يزيع الظلمة عنها. لكن الدارس يعتقد أن هذا الوضوح مفتعل، يهدف إلى إخفاء أمور لا يراد الإفصاح عنها، أو على الأقل يعتقد أن الوضوح نسبي ومحفوف بمناطق من الظلام. هكذا تمّحي الفوارق بين النصوص العكرة والنصوص الصافية، فتصير كلها غارقة في الظلام، ويكون على الدارس أن يشيع النور فيها، أن يحول الليل إلى نهار مشرق.

مسألة الوضوح والغموض تعرف عدّة أشكال: الحقيقة والوهم، الباب والقشور، المحتوى والغلاف... العديد من النصوص الكلاسيكية، على الرغم من انتمائها إلى أنواع مختلفة، تبرز الصور نفسها، تلك الصور التي تعود في النهاية إلى التعارض بين الظاهر والباطن. إنّ دراسة الصور تقتضي رفع الحواجز الموضوعة